رفض الآخر والرفض المضاد
تحليل خطابى لتاريخ الحملات الفرنسية على مصر
للضابط الفرنسى "هوويه"

أ. هناء فريد

الوثيقة التى تحمل اسم "الحملة على مصر من 1798، 1799، 1800، 1801"[1] هى عبارة عن تأريخ للحملات الأربع التى قام بها الجيش الفرنسى، بقيادة نابليون على مصر وسوريا. قام بكتابة هذا التأريخ ضابط فرنسى يدعى هوويه شارك فى العمليات العسكرية، منذ وصول الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية، فى عام 1798 حتى جلائه عام 1801.

استخدم هوويه فى كتابة هذا التأريخ اليوميات التى كان يدونها أثناء وجوده فى مصر كما يقول فى مقدمة مؤلفه، مؤكداً أن كل ما يقدمه هو حدث بالفعل، فلا يشوب هذا النص التاريخى أية معلومات خاطئة أو منافية للحقيقة[2]. وملخص هذه الحقيقة، وفقاً برواية هوويته، هى أن الجيش الفرنسى قد أتى إلى مصر ليخلصها من الاستبداد وليعيد إليها مجدها السابق.

وتتعارض هذه الأهداف المسالمة مع ما ورد فى تأريخ هوويه من أحداث وعمليات عسكرية كانت فى أغلبها عنيفة. ومن خلال تحليلنا لخطاب هوويه يتضح لنا من ناحية أنه يبوح بأكثر مما يريد أن يقول، وأن خطابه يحتوى على دلالة ضمنية من ناحية أخرى. وهاتان الملاحظتان تجعلنا ننظر إلى خطاب هوويه ليس فقط كنص تاريخى يسرد الأحداث، إنما كخطاب ذى نزعة أيديولوجية، تأسست على مفهوم صريح لرفض الآخر، ومفهوم ضمنى للرفض المضاد. وللوصول إلى ما هو صريح

وما هو ضمنى فى خطاب هوويه، سوف نتبين أولاً الخصائص اللغوية لخطاب هوويه وسوف نحاول أن نحدد ماهيته؛ لنستخلص السمات الدلالية لمفهوم رفض الآخر عنده. وثانياً سوف نحاول أن نكشف عن مفهوم الرفض المضاد من خلال تحليل ثلاثة أحداث أوردها هوويه والتى تبرز، على عكس ما يذهب إليه، مقاومة الشعب المصرى للاحتلال الفرنسى.

خصائص الخطاب وماهية هوويه

ويستخدم هوويه فى كتابة تاريخ الحملات الأربع على مصر وسوريا صيغة السرد التاريخى التى تعتمد على "العرض المقنع لشىء حدث"[3]، فهو يستخدم السرد من منظور البرهان والإقناع، فيؤكد هوويه أنه كان دائماً حريصاً أن يكون متصلاً بالواقع وأن يكون هناك تلاؤماً بين نصه والواقع والحدث، آخذاً دائماً فى الاعتبار عند الكتابة ظروف المكان والزمان والكيفية ومراعاة ضرورة حبكة الحدث[4] دون تدخل مباشر منه.

وبوسعنا أن نَصِفَ خطاب هوويه بأنه خطاب مسرود يتميز بغياب الراوى، كشخصية فى الحدث من حيث الصيغة. ويؤكد هوويه أن غياب الراوى لا يقلل من مصداقية روايته فهو حريص أن يذكر القارئ أنه "شاهد على الأحداث ومشارك فيها"، ويعرضها بكل "تفاصيلها أمام القارئ على أساس أنها كاملة وحقيقية"[5]. إن خطاب هوويه فى تناول التاريخ هو "خطاب الحقيقة".

وموقف هوويه هذا من التأريخ يضفى على نفسه بنية سردية تتميز من جانب بالوصف ومن جانب آخر بالفعل، بمعنى أن السرد عند هوويه يقترن بطابع الوصف للأشياء والأشخاص والمواقف عن طريق الأقوال الوصفية، أما الأقوال الفعلية فهى تشير إلى الحركة والحدث الواقع فى إطار زمنى محدد[6].

وتتضح هذه البنية السردية عند هوويه من خلال نظرتنا للنص من حيث البنية الكبرى macro-structure. وتتسم بالتماسك ذات الطبيعة الدلالية والتى تتحدد

عن طريق الأبنية المتتالية micro-structure، أى الجمل داخل النص نفسه[7]. والبنية الكبرى واضحة فى مؤلف هوويه؛ إذ إنه مقسم إلى جزأين تقريباً متساويين: الجزء الأول مخصص لوصف مصر قديماً وحديثاً، آخذاً فى الاعتبار ظروف المكان والزمان، والجزء الثانى يقدم أحدث الحملات الأربع على مصر، مراعياً حبكة الأحداث، أى أن الجزء الأول يتميز بالرؤية السكونية؛ أى بالأقوال المتتالية الوصفية والجزء الثانى بالرؤية الحركية؛ أى بالأقوال المتتالية الفعلية[8].

ماهية هوويه

ويأتى تماسك البنية الكبرى أيضاً من وضع الراوى(المؤرخ نفسه)، إذ إنه يتحدث من موقع القوة. فهو، قبل كل شىء، ضابط فى الجيش الفرنسى، ينتمى إذاً إلى سلطة عسكرية مغيرة تجعل منه "فاعلاً عاملاً" فى التسلسل المنطقى للسرد. إنه كضابط يمثل المؤسسة العسكرية الفرنسية التى جاءت إلى مصر بهدف احتلالها بالقوة، فهوويه كاتب يمثل إذاً هذا الكيان الذى يمتلك السلطة والقوة والنفوذ أى يمتلك "الحقيقة"[9]. فاختفاء ذات هوويه فى عملية الكتابة تعدُّ شيئاً طبيعياً، فهو يتحدث من وضع القوة التى تعطيه القدرة على تحديد العلاقات كما يحلو له.

ومن موقع هذه القوة يأتى خطاب هوويه تحت محور دلالى يدور بطريقة صريحة حول الرفض، إذ يقوم هوويه بوصفه ضابطاً ومؤرخاً بتحديد كل العلاقات من هذا المنطلق ولكن فى الوقت نفسه لا يمكن أن يثبت هوويه وجوده ككيان ذات نفوذ إلا إذا أوجد الآخر أى الطرف الثانى[10]. ومن هنا تأتى إشكالية تحديده لملامح وقسمات هذا الآخر.

رفض الآخر – الرفض فى الصيغة الوصفية

يحرص هوويه منذ البداية على أن يوضح هذه العلاقة القائمة على الرفض، بينه وبين الطرف الآخر، على أساس –كما قلنا– أنه يتحدث ليس فقط من موقع القوة، أى السلطة العسكرية الغازية، ولكن أيضاً من موقع السلطة المعرفية المتحضرة،

وعندما يرسم ملامح هوويه الطرف الثانى، أى الطرف المصرى، نجده يمحى ملامحه، ويبرزه على أنه لايمتلك أية قوة أو سلطة أو معرفة.

ونرى هذا واضحاً فى الجزء الوصفى من مؤلف هوويه، والخاص بتاريخ مصر القديم والحديث، إذ يصور هوويه المصريين القدماء بناة حضارة عظيمة، ازدهرت أثناءها الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية والاجتماعية. ولكن سريعاً ما يؤكد هوويه أن صفة العظمة هذه قد تلاشت واختفت فى مصر، منذ أن احتلها الغزاة، الرومان أولاً ثم العرب. ومنذ ذلك الحين يعتبر هوويه أن الوجود السياسى لمصر قد انتهى خاصة، كما يقول، بعد الفتح العربى، فعاش سكان مصر "تعساء تحت وطأة الاستبداد العربى لمدة 1200 سنة"[11]، وإن كان يعترف هوويه فى الجزء الخاص بتاريخ مصر الحديث أن المصريين قاوموا الفتح العربى فى الإسكندرية لمدة 14 شهر وكبدوا العرب خسائر فادحة؛ إذ وصل عدد القتلى –وفقاً لتقديره – 25 ألف قتيل. ولكن لم تفلح هذه المقاومة فى صد الغزاة، وأصبحت مصر "فريسة العرب" وفقدت بالتالى حريتها ومعابدها وديانتها" و"عاش المصريون البؤساء تحت قسوة العرب فى حالة من البربرية والاستعباد"[12].

ويتجلى رفض هوويه للمصريين فى هذا الجزء الذى يقع تقريباً فى خمسين صفحة من مؤلفه؛ إذ يعطى هوويه صورة فى غاية السلبية عن المصريين. ويكثر فى هذا الجزء استعماله لصيغ لغوية ذات الدلالة السلبية سواء كانت فى استعمال المفردات مثل الأفعال أو الأسماء أو الصفات، فكلها تدل على بدائية الحياة فى مصر خاصة فى الريف، فتعيش مثلاً النساء: "حياة فقيرة بائسة" ولا تستطيع بالتالى العناية بأطفالهن الذين يعانون من شدة الإهمال ومن عديد من الأمراض ينتج عنها "فقدان النظر وبطون منتفخة وأجسام نحيفة"، أما الرجال فهم "فلاحون بؤساء"، مسلوبون من أى إرادة، لا يستطيعون إطعام أسرهم ويتحولون فى النهاية إلى "لصوص ومجرمين". إذاً الصورة التى يعطيها هوويه، على مدى تلك الصفحات من مؤلفه، تصور حياة رجال ونساء وأطفال مصر بدائية، فقيرة، تعيسة. ويجب علينا أن

نتساءل: لماذا هذا التصميم من قبل هوويه فى تصوير المصريين بهذه السلبية؟ لماذا تعمد هوويه إبراز جميع الجوانب التى تنفى عن المصريين صفات الإرادة والإبداع والتنظيم والعمل المتضامن؟

ونعتقد أن تقسيم المؤلف إلى قسمين يبديان منفصلان ليس من قبل التنظيم الخطابى البحت، برغم أن هوويه يؤكد فى مقدمته أن الهدف من الجزء الأول الذى يعرض فيه تاريخ مصر القديم والحديث هو "إعطاء القارئ الفرنسى فكرة عن تاريخ هذا البلد الذى كان مسرحاً لعمليات الحملات الفرنسية"[13].

ونرى أن هناك صلة وثيقة بين الجزأين، فالجزء الأول يبرر الجزء الثانى؛ أى أن وصف المصريين تحت استعباد خلفاء محمد "المتوحشين"[14] على مدار اثنى عشر قرناً يبرر قيام الحملة الفرنسية على مصر؛ لتخليصها من عبودية العرب والأتراك ولكى تسترد مجدها السابق.

ومن هنا نرى أن الموقف الذى يتنباه هوويه، والمؤسسة العسكرية التى يمثلها، هو موقف الرفض : رفض لثقافة دينية متمثلة فى الإسلام، رفض لسلطة سياسية مستبدة متمثلة فى العثمانيين والمماليك، رفض لأوضاع اجتماعية متمثلة فى بؤس حياة المصريين واستعبادهم، فكان مهماً، من وجهة نظر هوويه، لتبرير الحملة على مصر، أن يصور الأوضاع فى مصر على أسوأ حال. ولكن من جانب آخر كان مهماً أن يصور هوويه المصريين مسلوبى الإرادة، ومعدومى القوة، غير قادرين على المقاومة؛ لكى يثبت للقارئ الفرنسى من ناحية أخرى أن الجيش تحت قيادة بونابرت لم يتكبد خسائر فادحة أثناء العمليات العسكرية فى مصر، فهكذا يكون هوويه قد رد أيضاً على اللوم الذى وجه لقادة الجيش الفرنسى عند عودته من مصر فى 1801[15].

ومن هذا المنطلق الذى لا يعترف بالآخر ناكراً له أية إرادة أو عزيمة، يكون هوويه قد هيأ القارئ الفرنسى أن يجد فى نصه ما يعبر عن رفض المصريين للاحتلال الفرنسى.

رفض الآخر – الصيغة الفعلية

وإذا انتقلنا إلى الجزء الثانى من مؤلف هوويه الذى يعرض فيه أحداث العمليات العسكرية، نجد أن هوويه يحاول بالفعل أن يقلل من حدة المقاومة التى واجهها الجيش الفرنسى فى مصر، وبالعكس يبرز من الصفحة الأولى بسالة وشجاعة الجنود الفرنسيين، أما المتاعب التى واجهوها فتدور فقط حول سوء الأحوال الجوية ونقص المياه والطعام. ولكن هل نجح هوويه حقاً عند سرده للأحداث أن يمحى ملامح الرفض والمقاومة لدى الشعب المصرى؟ ومن خلال تحليلنا لخطاب هوويه لنتبين ما حاول هوويه ألا يقوله أو ما حاول أن يكتمه أو أخيراً ما قلل من شأنه. نرى أن خطابه يكشف لنا ما عمل على إخفائه، حيث إن وظيفة الخطاب لدى المتلقى لا تمضى دائماً فى الاتجاه المحدد لها، إذ تلقاها الأخير بصورة عكسية، ذلك لأن "الكلمات تتغير معانيها وفقاً لمواقف الذين يستخدمونها"[16]، فهى تأخذ دلالاتها من منطلق استخدامها فى مواقف معينة. والموقف المحورى الذى ينطلق منه هوويه هو الصراع للاستيلاء على مصر، ويحتم منطق الصراع وجود طرفين متصارعين، فإن وُجِدَ غازٍ فسوف يوجد أمامه حتماً مدافع عن أرضه وكيانه، بمعنى أن مقاومة الشعب المصرى للجيوش الفرنسية الغازية هو أمر بديهى.

الرفض المضاد – المقاومة

وقد اخترنا ثلاثة أحداث أوردها هوويه فى مؤلفه؛ لنبين من خلال تحليل التركيبات اللغوية ودلالتها أن خطاب هوويه يتضمن ما يفيد برفض مصرى للوجود الفرنسى.

• الحدث الأول من بين الأحداث الثلاثة التى استوقفتنا هو الحدث الذى يبدأ به هوويه تأريخه عن الحملات والذى يسرده فى ثلاثة عشر صفحة يتمثل فى : نزول الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية فى الثالث من يوليو سنة 1798 ثم زحف هذا الجيش واصطدامه بالمماليك عند شبراخيت فى الرابع عشر من يوليو من نفس السنة وصولاً إلى القاهرة.

•والحدث الثانى يتعلق بثورة القاهرة الأولى فى الثانى والعشرين من أكتوبر سنة 1798، وقد أورد هوويه هذا الحدث فى أقل من صفحة.

•أما الحدث الثالث فيتعلق بمقتل كليبر الذى وقع فى الرابع عشر من يونيو سنة 1800، ويرويه هوويه فى خمس صفحات.

الحدث الأول : مقاومة نزول جيش بونابرت إلى الإسكندرية

يتميز الحدث الأول الذى يحكى نزول الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية، ثم زحفه إلى القاهرة، بإبراز بادئ ذى بدء العلاقة غير المتكافئة من خلال استخدام صيغ النعت ذات الدلالة الإيجابية؛ لوصف نزول الجيش الفرنسى: فهو مكون من كتائب يقود كل واحدة منها قائد : رينييه وكليبر ومينو وبون. يؤكد هوويه أن هذه الكتائب اتبعت مخططاً عسكرياً "دقيقاً ومنظماً" للنزول إلى الإسكندرية، وأن كل كتيبة اتخذت "بسرعة ونظام" موقعاً معيناً تستطيع من خلاله أن تسيطر على الموقف فتقع مدينة الإسكندرية سريعاً تحت سيطرتها.

ويقع الاستيلاء على الإسكندرية فى صفحتين من مؤلف هوويه يستعمل فى كتابتهما، إلى جانب صيغ النعت، نوعين من صيغ الصوت. فيستعمل وبصفة مستمرة صيغة المعلوم للإشارة إلى كل عمليات الجيش الفرنسى من نزول وهجوم واستيلاء وصد وقتل ومحاصرة. ولكن من هو هذا العدو الذى تهاجمه هذه الجيوش وتحاصره وتقتله؟! يحرص هوويه فى روايته على عدم ذكر الطرف الآخر؛ ليبرز نجاح الجيش الفرنسى فى الاستيلاء على الإسكندرية بسهولة: فقد نجحت كتيبة "كليبر" فى هجومها على المدينة القديمة واستولت عليها، ونجح "مينو" فى الاستيلاء على الميناء القديم، ونجحت كتيبة "بون" فى الدخول إلى مدينة رشيد، ولا يذكر هوويه أن تكون هذه الكتائب قد تعرضت لأية مقاومة. وعندما يضطر هوويه إلى ذكرها فهو يستخدم مصطلحات توحى أنها لا تمثل خطراً على الجيوش، فالذين يلاحقون كتيبة رينييه التى نزلت فى برج العرب ليس إلا "مجموعة من البدو" لا تستطيع بطبيعة الحال أن تقف أمام جيش منظم من حيث العدد العُدَّة.

ونلاحظ أنه بالرغم من عدم ذكر أية مقاومة من قبل المصريين، فمن الواضح أنه كان هناك رفض عام تجاه دخول الفرنسيين إلى مصر. فيذكر هوويه أن الجيش الفرنسى قد نزل إلى شواطئ الإسكندرية فى منطقة غير مأهولة شرق الميناء القديم بسبب الأخبار التى تلقاها والتى كانت تفيد بعدم ترحاب أهالى الإسكندرية له. وحسب رواية هوويه، فإن الاستيلاء على الإسكندرية قد تم بدون خسائر وبدون مقاومة. ولكن كيف نفسر أن كليبر ومينو قد جُرِحا أثناء الهجوم؟! ونلاحظ هنا أن هوويه عندما يقلل من حدة هذا الحدث، يستخدم "صيغة المجهول" لذكر هذين الحدثين؛ ذلك لأن هذه الصيغة تسمح فى اللغة الفرنسية بعدم ذكر الفاعل الحقيقى وبالتالى تلغى دوره، فيقع تأثير الفعل مباشرة على المفعول به الذى يأخذ وضعاً مرموقاً فى ترتيب الكلمات فى الجملة فيوضع فى أولها. فالمهم بالنسبة لهوويه أن يبرز مشاركة "كليبر ومينو" الشجاعة أثناء الهجوم، وأن يكتم شدة المقاومة التى لابد وأنها كانت شديدة وعنيفة بحيث استطاعت أن تنال من هذين القائدين، إذ جرح "كليبر" فى الرأس وأصيب "مينو" بطلقة نارية فى الفخذ!

ولا يشير هوويه إلى مسئولى المقاومة، فهم كما قلت "مجموعة من البدو" و"بعض الأتراك والأهالى"، والاسم الوحيد الذى يذكره هو الشريف "محمد كريم" حاكم مدينة رشيد والذى، حسب رواية هوويه، وفى ثلاثة سطور بالضبط، "استسلم بسرعة وبهدوء" بعد أن حُوصِر داخل قلعة الفنار مع "الأتراك". وينهى هوويه هذا الجزء عن الاستيلاء على الإسكندرية بذكر خسائر الفرنسيين البشرية التى بلغت من 150 إلى 200 جريح وقتيل من ضمنهم الجنرال المساعد "مارس".

ونرى أن هوويه قد حرص فى هذا الجزء أن يقلل من ذكر حدة مقاومة الإسكندرية، سواء كان يقودها جنود أم أهالى أم بدو، من خلال استعماله لصيغة المجهول أو الجمل الاسمية الأقل تأثيراً عامة من الجمل الفعلية، فصيغة المجهول لا تشير إلى الفاعل الحقيقى والجمل الاسمية لا تشير إلى الفعل.

يواصل هوويه روايته بزحف الجيش الفرنسى إلى القاهرة ولكن قبل أن يتطرق للأحداث العسكرية يتوقف لوصف مدينة الإسكندرية وأهاليها. ويتابع هذا هوويه النمط السردى الذى استخدمه فى وصف تاريخ مصر القديم والحديث بإبراز التناقض بين حالين : فيوصف حال مدينة الإسكندرية على أنها "أطلال مهدمة" وشعبها "فقير وحاف ونحيف"، وفى نقيض ذلك حال الجيوش الفرنسية والاستعدادت والترتيبات والتعزيزات من رجال ومعدات للسيطرة على المدينة قبل التوجه إلى القاهرة.

ويواصل هوويه روايته برحلة كتيبتى "رينييه" و"ديسكس" إلى دمنهور متوجهين إلى القاهرة. ويشرح هنا هوويه فى صفحة كاملة عذاب الجنود والضباط من العطش والجوع، وفى بعض الأحيان من "بربرية العرب" الذين كانوا يلاحقونهم ويقتلونهم.

وابتداء من هنا نلاحظ تغيراً فى نمط سرد أحداث دمنهور، إذ يبدو أن أهالى هذه المدينة كانوا ينتظرون العدو فاستعدوا مع بدو المنطقة للتصدى إليه. فبدلاً من صيغة المجهول التى استخدمها هوويه قبل ذلك، بدأ يستخدم صيغة المعلوم ليسرد أعمال الأهالى الذين "تسلحوا داخل منازلهم وقاموا بإخفاء الأطعمة وخاصة الحبوب وقاموا بإطفاء الأفران". ولكن لا يتحدث هوويه عن أية مواجهة بين الأهالى والقوات الفرنسية إلا فى هامش الصفحة مشيراً بواسطة جملة اسمية إلى مشاهد عنف وقتال مريرة فى دمنهور. وهنا أيضاً يحاول هوويه أن يقلل من مقاومة أهالى دمنهور، فيظهرهم فى موقف المدافع السلبى وليس المهاجم، فإنهم "يختبئون داخل منازلهم ويخفون الحبوب"، ولكن فى الوقت نفسه يناقض نفسه بالإشارة فى الهامش إلى المواجهات العنيفة بين القوات الفرنسية وأهالى دمنهور.

ويبدو أن القوات الفرنسية كانت تخشى مواجهة المماليك الذين كانوا يقتربون منهم؛ ذلك لأن الاستعدادات كانت على أشدها من جانب القوات الفرنسية لشن المعركة ضد جيش المماليك. وفعلاً حدثت المواجهة بين القوتين، ويستعمل هوويه

هنا تارة صيغة المجهول ليروى أن القوات الفرنسية هُوجِمت من قبل المماليك وتارة صيغة المعلوم ليبين كيف تصدت القوات الفرنسية للعدو باستخدامها لسلاح المدفعية، وكيف أجبرت قوات المماليك إلى الانسحاب لتواصل تقدمها حتى الرحمانية على ضفاف النيل الذى كان بمثابة المنقذ حيث المياه الوفيرة والأراضى الزراعية الخضراء وقطعان الماشية. وتعتبر هذه المعركة الأولى التى يتواجه فيها الجيشان ولكن يصورها هوويه على أن النصر كان سهلاً للغاية للقوات الفرنسية؛ بسبب تفوقهم من حيث الأسلحة وإتقان الخطط الحربية الهجومية أمام عدو لا يملك بعد ذلك إلا أن ينسحب حتى وإن كان قد بادر بالهجوم.

وتجتمع كل القوات الفرنسية فى الرحمانية بعد وصول بقية القوات إليها سالمة، وإن كانت قد تعرضت لهجوم العرب فى الطريق. ومرة أخرى وفى الهامش يذكر هوويه بالاسم مقتل ثلاثة ضباط هم: "موويرير" و"كامين" و"جالوا" وآخرون وصل عددهم إلى 150 ضابطاً وجندياً.

والتناقض بين ما يكتبه هوويه فى نصه وما يذكره فى الهوامش يبدو واضحاً، ويعتمد هوويه على التركيبات اللغوية؛ ليحد من هذا التناقض، فيستخدم الجمل الفعلية فى سرده للأحداث ليصبح مدلولا الحركى والعملى فى صالح القوات الفرنسية. أما تركيبات الهوامش فكلها جمل اسمية توصف حالة عامة يصعب على القارئ أن يحسم الموقف لصالح أحد الطرفين.

ويبدو أنه كلما اقتربت القوات الفرنسية من هدفها أى الاستيلاء على القاهرة كانت الأمور تزداد صعوبة، ويبرز هذا واضحاً من الاستعدادت الكبيرة التى كانت تتخذها القوات الفرنسية، إذ كانوا يعلمون، وبونابرت على رأسهم، أنهم سوف يواجهون قوات المماليك مرة أخرى وهذا ما حدث فعلاً فى شبراخيت[17]. وقبل المواجهة يعطى هوويه تفاصيل الاستعدادات وخطط الهجوم إلى جانب ذكر عدد الكتائب (6) من مشاه وفرسان ومدفعية إلى جانب الأسطول النهرى الذى كان يصاحب القوات البرية.

ويسرد هوويه معركة شبراخيت فى صفحتين كاملتين[18]. ويبدو أنه قد أدرك أهمية هذه المعركة من حيث العدد الهائل للقوات الفرنسية ووجود جيش من المماليك ذى السمعة القوية. فالأمانة التاريخية أملت على هوويه أن يأتى بحقائق الأحداث حينما يذكر الهجوم على الأسطول النهرى الفرنسى وإخفاق قائده على التصدى للأسطول المملوكى. وبداهة يستعمل هنا هوويه صيغة المجهول أيضاً عندما يهاجم الأسطول الفرنسى، وصيغة المعلوم عندما تتحول المعركة النهرية لصالح القوات الفرنسية فيقول : "تم الاستيلاء على ثلاث مركبات مدفعية وجرح "بيريه" قائد الكتيبة النهرية، ولكن مع هذا استطاع بيريه "بشجاعته" أن يسترد المركبات الثلاث وأن يغرق بعض مراكب العدو المملوكى، وأن يجبر الآخرون على الانسحاب"[19]. استطاع إذاً "بيريه"، وفقط بمساندة القوات البرية، أن يسيطر على الموقف بعد أن أوشك أن يفلت منه زمام الأمور من شدة هجوم المماليك على أسطوله. ووفقاً لما يقوله هوويه فقد فقدت القوات الفرنسية فى هذه المعركة النهرية 15 إلى 20 قتيلاً بالإضافة إلى عدد من الجرحى من بينهم "بيريه" نفسه قائد الأسطول. وعلى الفور تبدأ المعركة مع وصول ثلاثة آلاف فارس مملوكى وأربعة آلاف نفر من عرب القبائل الذين أتوا، كما يقول هوويه "للسرقة وجمع الغنائم وليس للمشاركة فى المعركة"، وإن كان هوويه يعتبرهم قوة لا يستهان بها من حيث العدد.

وتختلف هنا نظرة هوويه للمماليك إذ يصفهم، ولأول مرة، بأنهم "ذوى جرأة ومحاربين أشداء"، ولكن يضيف فى نفس الوقت أنهم لا يستطيعون الوقوف ضد قوة نيران القوات الفرنسية و"النظم الحديثة المتبعة فى إدارة المعارك". ويحسم هوويه المعركة لصالح القوات الفرنسية بعد تقهقر وانسحاب قوات المماليك، تاركين وراءهم 300 قتيل على الأقل وعدد كبير من الجرحى. أما عرب القبائل فيشير هوويه أن دورهم كان ضئيلاً للغاية ولم يشاركوا فى المعركة. أما القوات الفرنسية فقد فقدت من 40 إلى 50 قتيلاً فقط و80 جريحاً تقريباً.

وهكذا يختتم هوويه هذا الجزء الذى يروى فيه نزول الجيوش الفرنسية الإسكندرية وزحفها إلى القاهرة محاولاً أن يثبت تفوق القوات الفرنسية أمام عناصر بلد لا تمثل قوة فعالة فى نظره.

وقد استند هوويه على البنية السردية بصيغها اللغوية ليظهر هذه العناصر فى حركتها ضعيفة، مفككة، غير فعالة، واستند أيضاً على المفردات من أفعال وأسماء وصفات ليصور هذه العناصر فى صورة سلبية للغاية وعلى نقيض تام بالصورة التى يعطيها للمؤسسة العسكرية الفرنسية، فاستغل هوويه اللغة لبناء خطاب يخدم أغراضه : إبراز عظمة القوات الفرنسية وإنكار قدرة الآخر على المقاومة.

ولكن "الخطابات ليست مسالمة على الإطلاق"[20]، ومعانيها تنشأ فى ماهو علاقات تعارض، إذا يخلق الخطاب المعارض فى طياته خطاباً مضاداً آخر، يكشف أن هذه العناصر المكونة من الأهالى والمماليك والبدو شكلت حركة جماعية شاملة تصدت للقوات المغيرة، وشلت حركتها فى بعض الأحيان وكبدتها خسائر، وأخرت بالتأكيد تقدمها. ويمكننا بالتالى اعتبار هذه العناصر قوة رافضة فعالة، أى حركة مقاومة أمة على عكس ما ذهب إليه هوويه.

ثورة القاهرة الأولى

ورواية ثورة القاهرة الأولى خير دليل على عدم اعتراف هوويه بهذه القوة الرافضة للوجود الفرنسى فى مصر. فهو كما يذكرنا فى أقل من صفحة يحاول أن يقلل من أهميتها فيشير إليها على أنها "تمرد عام وانتفاضة شعبية"، ولكن نراه يعنونها فى الهامش "ثورة القاهرة والأقاليم من 22 إلى 26 أكتوبر"[21].

ويحيط هوويه هذه الثورة بظروف تنكر للشعب المصرى المبادرة بالقيام بها، ففى نظر هوويه تكمن أسباب الثورة فى نظم الإدارة الجديدة للبلاد[22] التى وضعها بونابرت بعد الاستيلاء على القاهرة، ويعتبر هوويه تذمر المماليك بعد تضررهم من هذه الإجراءات هو من الأسباب الرئيسة لقيام ثورة القاهرة الأولى، إلى جانب نداء

الباب العالى إلى الجهاد ضد الغزاة. فيصور هوويه الثورة على أنها ليست إلا تمرداً من قبل المماليك دفاعاً عن مصالحهم الشخصية وإذعاناً لنداء السلطان العثمانى[23].

ونستشف هنا أيضاً من خطاب هوويه هذا التناقض الذى أشرنا إليه من قبل، ففى الوقت الذى يحاول فيه أن يصور الثورة على أنها تمرد، يضيف بعد ذلك أن الإجراءات الجديدة للإدارة أثارت الغضب فقامت الثورة.

ولكن ينكر هوويه وجود الآخر فيشير إلى الثوار بالضمير الغائب "on" فى عبارات مثل : هاجم، قتل. ومن خصائص هذا الضمير أنه لا يشير إلى أحد بالذات ويزيل من تأثير فاعلية الفاعل[24]، فهو لا يحسم ولا يحدد من هاجم الفرنسيين ومن قتلهم. وإنكار الفاعل يأتى مع استخدام أفعال تشير إلى قوة الثورة، ولكن مستخدمة هذا أيضاً فى صيغة المجهول : فالفرنسيون هوجموا وقتل منهم أكثر من 500 جندي، كما قتل "المتمردون" الجنرال "دوبوي" الذى كان قد هرع "لتهدئة" الأوضاع[25].

ويستمر التناقض فى خطاب هوويه لأنه يعطى القارئ عكس الصورة التى يريد أن يفرضها. ففى مقابل إنكار الخصم والتقليل من شأنه، يحكى هوويه كيف أخمدت الثورة : "قذفت القوات الفرنسية المدينة بالقنابل"، "كان تبادل النيران على أشده فى الشوارع"، "أجبرت القوات الفرنسية "عشرين ألف متمرد" على الاختباء فى جامع الأزهر، وحاصرت قرابة الألف داخله وعند رفضهم الاستسلام قامت بقتلهم جميعاً"[26].

وتشير شدة رد الفعل الفرنسية لإخماد الثورة على أنها كانت حركة شعبية عامة رافضة وقوية من حيث اتساع رقعتها فهى شملت كل المدينة، ومن حيث العدد الهائل الذى اشترك فيها (عشرون ألف شخص)، ومن حيث شدة المعارك داخل المدينة نفسها وخاصة من حيث عدد الضحايا من كل جانب وفوق كل هذا من حيث مقتل الجنرال "دوبوى" نفسه باعتباره حاكما على القاهرة.

وعدم الاعتراف بالآخر يأخذ هنا بعداً آخر عن ما كان عليه فى الحدث الأول، فرفض هوويه للطرف الآخر يزداد كلما ازداد حدة رفض الآخر له، فرفضه للمصرى فى الحدث الأول يعتمد أساساً على وصف القوى للضعيف، وصف المتحضر للبدائى. أما فى الحدث الثانى يأتى الرفض محاولة لإنكار فاعلية الآخر ومحاولة لإبطال تأثيره، ذلك أن قسوة القوات الفرنسية لإخماد الثورة يتعارض مع محاولة هوويه لتصويرها على أنها مجرد تمرد قام به فوضويون لا أكثر ولا أقل، خاصة أنه يضيف بعد سطور قليلة أنه قد تم القبض على الرؤوس المنظمة للثورة وتم إعدامهم، وهذا يدل على أنها لم تكن انتفاضة إنما كانت حركة شعبية، هدفها مقاومة محتل وإجباره على الجلاء عن البلاد.

مقتل كليبر

وتكتمل البنية السردية فى خطاب هوويه عندما يروى مقتل كليبر، وهو الحدث الثالث الذى سنتناوله لاستكمال تحليلنا لمفهوم الرفض المضاد.

يقص هوويه مقتل الجنرال كليبر محاولاً نقل الأحداث كما وقعت بالفعل ليكسب روايته أقصى درجة من المصداقية، آخذاً فى الاعتبار ظروف المكان والزمان : الساعة الثانية عشرة ظهراً فى منزل الجنرال "داماس" المطل على ميدان الأزبكية. وآخذاً أيضاً فى الاعتبار المناسبة : حفل غذاء جمع جنرالات من الجيش الفرنسى والمهندس الذى قد كلفه كليبر ببعض الأشغال[27].

يحاول هوويه أن يعرض حادث مقتل كليبر محاكاة تامة وبشكل تفصيلى ودقيق ليعطى الانطباع أنه شاهد عيان وينفى عنه بذلك مبدأ احتمالية حدوث الفعل أو "مبدأ التخييل"[28]. ومن هذا المنطلق يسرد هوويه بدقة متناهية كيف تم مقتل كليبر مستخدما هنا صيغة المعلوم المباشر التى تضع تحت أعين القارئ الفعل نفسه والمسئول عنه، فلا يحاول هوويه هنا إخفاء شخصية الفاعل، فهو "تركى اختبأ فى حديقة المنزل ثم خرج من مخبئه وانطلق نحو كليبر وطعنه فى أسفل البطن".

ويشير هوويه إلى الفاعل مرة ثانية، ويستخدم هذه المرة كلمة "القاتل" الذى ينطلق هذه المرة نحو المهندس، ويطعنه عدة طعنات، ثم يرجع إلى كليبر ليطعنه ثلاث مرات، ولكن كليبر كان قد لفظ أنفاسه من أول طعنة. ويواصل هوويه سرد تفاصيل الحادث من هروب القاتل إلى القبض عليه ولكن الذى يهمنا هنا هو الجزء الذى يروى فيه التحقيق مع القاتل.

ويحرص هوويه على إبراز مقتل "كليبر" كأنه عمل فردى قام به "غريب من حلب يدعى سليمان الحلبى"[29]. ويأتى هوويه بنص التحقيق الذى تم على يد يونانى يدعى "برتلمى"[30] ليعضض هذه الفكرة. ويقول التحقيق إن "سليمان الحلبى" كان ضحية متآمرين فى حلب، وأنه أقدم على مقتل "كليبر" ليخلص أبيه من قبضة حاكم حلب الذى أودعه فى السجن، ولكن فى نفس الوقت يقول التحقيق على لسان "سليمان الحلبى" نفسه أنه اعتبر مقتل كليبر "عملاً مقدساً" وفعلاً يحمد عليه[31]. ولا تستوقف هذه التصريحات الأخيرة هوويه؛ إذ ما يهمه هنا هو تبرئة الشعب المصرى من هذه التهمة وإثبات عدم تورط الشيخ السادات فى مقتل كليبر؛ حيث إن الشيخ السادات كان على رأس متمردى ثورة القاهرة الثانية. ويأخذ هوويه هذا الموقف ليس حباً فى الشعب المصرى إنما كما يقول: "لتجنب مجزرة فى شوارع القاهرة" يقوم بها الجنود الفرنسيون انتقاماً لمقتل كليبر. ولا يعطى هوويه أية إشارة لرد فعل أهالى القاهرة لهذا العمل فيذكر فقط أنهم اختبأوا فى منازلهم وأن نتيجة التحقيق تشير بوضوح إلى أنهم لا يد لهم فى هذه "الجريمة".

بيد أن الحكم بالإعدام الذى نُفذ فى سليمان الحلبى لا يمكن أن ينظر له كمجرد عقاب، وإنما إنذار قوي لكل مصرى يحاول أن يثور، فتصبح العقوبة سلاحاً فى يد السلطة لقمع أية مقاومة أو رفض. ويدرك هوويه المغزى الرمزى لعقوبة إعدام سليمان الحلبى التى تمت فى نفس يوم توديع جثمان كليبر فى احتفالية كبيرة و"مؤثرة"، ففى الوقت الذى كانت تطلق المدافع فيه تحية للجنرال كليبر، استمر تعذيب سليمان الحلبى لمدة أربع ساعات كاملة إلى أن لفظ أنفاسه.

ولكن هذه "الجريمة" نالت من أكبر رأس فى الجيش الفرنسى المحتل واستطاعت أن تزعزع مؤسسة قوية كان "كليبر" ركيزتها الأساسية فى مصر، كما أنها، وهذا حسب رواية هوويه، أدت إلى وضع الجنرال "مينو" على رأس الجيوش الفرنسية فى مصر، كما يعتبر هوويه هذا القرار بمثابة كارثة، وسبب كل المشاكل التى تعرضت لها القوات الفرنسية فيما بعد.

وإذا كان هوويه قد استدرك رمزية طقس الإعدام[32]، فلم يتدارك رمزية مقتل كليبر. فهو لم يتناوله من منظور المقاومة للاحتلال، ولم يأخذ فى الاعتبار احتمال مجىء المقاومة من الخارج أو أنها سوف تلقى مساندة من الداخل، وأهمل هوويه عن عمد رمزية دلالة المقاومة فى هذا الحدث مركزاً على النتيجة السياسية للحدث التى تخص الجيش الفرنسى لا المجتمع المصرى، فالنظرة التى يلقيها على الحدث هى من وجهة نظر الذى يمتلك القوة والسلطة، ويترجم خطاب هوويه هذا الموقف فى التركيبات اللغوية والمفردات المستعملة ومعانيها والتى تنطلق من مواقع المؤسسات التى ينتمى إليها الخطاب وفى حالة هوويه تكون المؤسسة العسكرية، وهى التى تحدد "ما يمكن أو ما ينبغى قوله"[33] وتملى عليه تجاهله لرمزية مقتل كليبر واعتباره مجرد جريمة يعاقب عليها.

* * *

ويتضح من خلال تحليلنا لخطاب هوويه أنه اتبع عملية خطابية أنتجت فى النهاية نصاً موجهاً رغم ادعائه، تعوزه المحايدة التاريخية وينتمى إلى الخطاب الأيديولوجى، اعتقد هوويه أنه نجح من خلاله الوصول إلى أهدافه عن طريق وضع بنية دلالية تفيد بالآتى:

تقديم صورة ناجحة للقارئ للحملات على مصر على المستوى الحضارى والعسكرى، وذلك باستخدامه الصيغ اللغوية التى ترفع من شأن المؤسسة العسكرية التى ينتمى إليها، فاستخدم صيغة المعلوم والأفعال الحركية ذات الدلالة

الإيجابية لتخدم الرؤية الحركية التى يريد أن يصل إليها. وللوصول إلى هذا الغرض، كان على هوويه أن يعمل على تهميش صورة المقاومة المصرية، فصوَّر المجتمع المصرى على أنه مجتمع مستسلم، بدون إرادة، وذلك عن طريق أيضاً الصيغ اللغوية مثل صيغة المجهول والألفاظ التى تؤدى إلى معانى سلبية، فيخدم بذلك الرؤية السكونية التى يريد أن يصل إليها.

ولكن أثار رفض هوويه للمجتمع المصرى فى الوقت نفسه عملية خطابية ضمنية موازية للأولى تفيد برفض مضاد متمثلاً فى مقاومة المجتمع المصرى للاحتلال الفرنسى. إن الخطاب الأيديولوجى المبنى على مفهوم الصراع يتضمن حتماً طرفين متصارعين، وفى إنكاره للآخر من خلال الأبنية النحوية والدلالية، أوجد هوويه الطرف الآخر رافضاً للأوضاع، وهكذا تضمن خطاب هوويه الرفض المضاد الذى تمثل فى حركة جماعية منظمة شملت الجيش المملوكى والأهالى والبدو، هى بمثابة مقاومة أمة، والذى تمثل أيضاً فى حركة جماعية غير منظمة قام بها شعب القاهرة، ونعتبرها مقاومة شعب وأخيراً تمثل فى حركة فردية رمزية، نالت من أكبر رأس فى المؤسسة العسكرية الفرنسية، ونعتبرها مقاومة شعب وأمة جسَّدها سليمان الحلبى.

* * *

الهوامش

(1) الوثيقة محفوظة فى دار الوثائق القومية بالقاهرة وتحمل رقم 2402.
(2) هوويه، الحملة على مصر، المقدمة، ص3.
(3) د. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1992، ص276.
(4) نفس المرجع، ص 279.
(5) هوويه، المقدمة، ص 3.
(6) د. صلاح فضل، المرجع السابق، ص315.
(7) المرجع السابق، ص255.
(8) د. عبد السلام المسدى، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، تونس 1986، ص122.
(9) "إن خطاب السلطة هو خطاب الحقيقة"، انظر :
J.C. Coquet, La quete du sens. Le langage en equestion, PUF, 1997, p.149.
(10)J.C. Coquet, Op. Cit., p.76; E. Benveniste, Problemes de Linguistique generale, vol.I, 1966, p.25.
(11) هوويه، ص 43.
(12) هوويه، ص49.
(13) هوويه، المقدمة، ص4.
(14) هوويه ، ص 43.
(15) يحدد هوويه فى المقدمة أن تأريخه للعمليات العسكرية فى مصر وسوريا هو بمثابة رد على كل من حاول أن يسىء إلى حملة نابليون على مصر، متهماً إياه أنه كبد الجيش والدولة خسائر كبيرة. انظر هوويه، المقدمة، ص3.
(16) د.صلاح فضل، المرجع السابق، ص178.
(17) اختلط الأمر على هوويه فى تسمية هذه المعركة، فهى فى الحقيقة موقعة أمبابة وليست شبراخيت، ويلاحظ أن هوويه يروى الأحداث بعد قرابة ثلاثين سنة من حدوثها.
(18) هوويه، ص127 و 128.
(19) هوويه، ص 127.
(20) ديان مكدونيل، مقدمة فى نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم د.عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2001، ص109.
(21) هوويه ، ص135.

(22) يذكر هوويه أن القوات الفرنسية كانت تعمل على وضع إدارة جديدة لمصر للاستفادة من الموارد والثروات الموجودة فى البلاد من خلال لجان فى الأقاليم لوضع حد لاستغلال المماليك، كما يذكر تأسيس ديوان مكون من الأعيان للنظر فى قضايا البلاد المختلفة، انظر هوويه، ص 135.

(23) هوويه، ص 135.

(24)H.Weinrich, Grammaire textuelle du français, Didier-Hatier, 1989, p.78.

(25) هوويه، ص135.

(26) هوويه، ص 135.

(27) هوويه، ص 195.

(28) د. صلاح فضل، المرجع السابق، ص306 : "المحاكاة تتحدد بأنها تعنى الحد الأقصى من البيانات والأدنى من المرسل".

(29) هوويه، ص 197.

(30) حسب الجبرتى برتلمى هذا هو الذى كان المصريون يسمونه "فرط الرمان".

(31) هوويه، ص 198.

(32) ديان مكدونيل، المرجع السابق، ص113.

(33) نفس المرجع، ص181.

❊ ❊ ❊